منهُ المائة الف دينار ما ضاع منها دينار واحد واخذتُ من الجيش ما احتجت اليهِ وبعت باقيهُ بجملة وافرة وقلت في نفسي: انهُ قد بقيت لي بقيَّة اقبال جيدة

قدوة الكهنوت

للاب لويس شيخو اليسوعي

في اليوم الثالث من شهر آب المنصرم أقامت فرنسة عموماً ومدينة أرس خصوصاً حفلات بهجة لاكرام احد ابنائها الافاضل الذي عطَّر العالم بعبير فضائلهِ مدَّة اربعين سنة صرفها في خدمتهِ تعالى ورعاية النفوس. نريد ذلك الكاهن البارّ المسمَّى يوحنَّا ڤياناي الشهير بخوري أرس. فانَّ الكرسي الرسولي بعد الفحص المدقَّق والبحث الطويل عن سموّ فضائل رجل الله وصحَّة معجزاتهِ ابرز حكمهُ في جواز اكرامهِ وأدرج اسمهُ في عداد الاولياء ورخَّص باقامة عيد سنويّ لذكرهِ. فتمَّ هذا العيد لاوَّل مرَّة في الشهر الماضي برونقٍ عظيمٍ في مدينة أرس وحضر الحفلات عددٌ غفير من الاساقفة والكهنة والزوَّار المتقاطرين من انحاء فرنسة وفي مقدَّمتهم الكردينالان بارو وماتيو. وخطب في مديح صاحب العيد مصاقع الخطباء الذين عدَّدوا مناقب الطوباويّ الجديد واشادوا بثنائهِ وبيَّنوا ما كان لهُ من الفضل في حفظ وديعة الايمان بين الفرنسويّين وفي ردّ الكثيرين من الخطأة الى التوبة النصوح

ولمَّا كان الله قد اقام هذا الرجل العجيب في عهدنا ليجعلهُ قدوةً للكهنوت اردنا ان نلخّص هنا اعمالهُ ليتّخذهُ كهنة الشرق كمثال يتقفَّون آثارهُ في قداسة السيرة وسموّ غيرتهِ في خدمة القريب لعلَّهم يجنون بذلك شيئاً من الاثمار الطيّبة التي جناها ويردُّون مثلهُ قلوب الابناء الى الرب إلههم

*

لسعدنا الله ان نقضي زمناً في صحبة احد الكهنة الذين عرفوا خوري أرس احسن معرفة وعاشوا معهُ وعاينوا اعمالهُ العجيبة مدَّة سنين متوالية. وهذا الكاهن الدعو مونين (Monnin) انتظم بعد وفاة الاب ڤياناي في سلك الرهبانيَّة اليسوعيَّة وكتب سيرة معلّمهِ بغاية ما امكنهُ من التدقيق وكان اذا ذكرهُ استرسل في الكلام عن برارتهِ

وسائر فضائله وهو يردّد قولهُ: « اني لأشكر الله الذي اتاح لي بان اعرف قديساً في حياتي فاني اعدّ هذه النعمة كافضل نعم الله اليَّ » . فدونك خلاصة ما سمعنا من فيه وقرأناهُ في كتابهِ الذي شهد على صحّتهِ كلٌّ من عرفوا خوري أرس وعددهم لا يُحصى وقد طُبع هذا الكتاب ثانية عشرة طبعة

كان مولد يوحنَّا ماري ڤياناي في ٨ ايار سنة ١٧٨٦ تقبّلهُ ابواهُ الفاضلان كهبة من السماء وصرفا الجهود في حُسن تربيتهِ منذ نعومة اظفارهِ . فانَّ امهُ خاصَّةً لم تألُ جهدًا في طبع الفضائل المسيحيَّة في قلبهِ منذ اوَّل سني حياتهِ فعوَّدتهُ ان يتهجَّى اسمي يسوع ومريم وهو لم يبلغ بعدُ من العمر سوى ثمانيــة عشر شهرًا ثمَّ لمَّا ترعرع لم تدع فرصةً لتوجّه الحــافظهُ الى الامور السماويّة . وكانت اذا اسفر الصباح تسرع الى ايقاظ ولدها من نومهِ ليكون اوَّل فكرهِ متَّجهًا الى خالقهِ . امَّا قلب الولــد فكان اشبه بالشمع اللَّيّن تنطبع فيهِ كل تعاليم والدتهِ . فانهُ منذ السنة الثالثة من عمرهِ كان يعتزل في بعض زوايا دار والدهِ ليستحرَّ بالصلاة ويتلو سُبحــة العذراء وكان اذا اجهش الى البكاء ارتهُ امهُ الورديَّة فرقأ حالًا دموعهُ

هكذا نشأ يوحنَّا ڤياناي الى سنّ السابعة من عمرهِ فعهــد اليهِ اذ ذاك ابوهُ ان يرعى المواشي فاطاع بكل سذاجة ونشاط ووجد في هذه المهنة وسائل جديدة لتقديس نفسهِ فانهُ كان اذا وصل الى مرعى خصب ترك المواشي سائمةً وجعل يصلّي وربَّمــا كان يلقى غيرهُ من الرُّعاة فيدعوهم الى الصلاة معهُ ويعلّمهم ما تعلَّم هو من امّهِ

وكانت الثورة الفرنسويَّة في تلك الاثناء قد نفت الكهنــة واقفلت الكنائس وابطلت الفروض الدينيَّة وتهدَّد بالقتل مَنْ يتظاهر بالدين الَّا انَّ ابوي يوحنَّا ڤياناي لبثا امينين في خدمة الباري تعالى واتفقا مع غيرهما بأن يحافظا على الدين ولو بفقد الحياة . فاتوا سرًّا ببعض الكهنة واخفوهم في بيوتهم واتخذوهم كمعلّمين لاولادهم فكان يوحنَّا ڤياناي اذا عاد عند المساء يتردَّدُ على هؤلاء رؤساء الدين فيخدمهم ويأخذ عنهم مبادئ التعليم المسيحي ويتعلَّم القراءة فما لبث الكهنة أن وجدوا في قلب الصغير من كنوز النعمة ما اخذ بمجامع قلبهم ورأوهُ اهلًا لأن يتقرَّب لاوَّل مرَّة من القربان الاقدس فاتمَّ هذا الفعل العظيم بتقوى ملائكيَّة تأثَّر منها كلٌّ من عاينهُ وقد جرى ذلك في بطن ليل دامس امام مذبح حقير أُقيم في غرفة صغيرة خوفًا من اهل الثورة واعداء الدين

فاستولى الله على قلب الولد واصطفاهُ منذ ذلك لخدمتهِ الخاصة وألهمهُ محبّة العفّة الدائمة والرغبة في خلاص النفوس الّا انّ هذه العواطف بقيت محجوبةً في قلبهِ حتى عاد لفرنسة سلامها في سنة ١٨٠١ وكان يوحنّا ڤياناي صرف شبابهُ في مساعدة والديهِ في الفلاحة والزراعة وهو مع ذلك قدوة حيّة لكل الاحداث بسجاياه الحسنة ومناقبهِ الطيّبة يتمنّى كلّ من يراهُ ان يحظى بودادهِ ويحضّ الوالدون ابناءهم على تقفّي آثارهِ

وكان الشاب البارّ قد بلغ من العمر ثماني عشرة سنة وفكرهُ لا يزال منصرفاً الى الدعوة الكهنوتيّة فباشر الدروس اللازمة لخدمة النفوس على احد الكهنة الذين نوّهنا بذكرهم فاخذ منها ما استطاع. ولمّا سمح نابوليون الاوّل بانشاء المدارس الاكليريكيّة درس يوحنّا ڤياناي فيها الفلسفة واللاهوت حتى انجزها في مدرسة ليون الكهنوتيّة ورُقّي الى درجة الكهنوت في ٩ آب سنة ١٨١٥ في مدينة غرانُبل بينما كانت الحرب قائمة في فرنسة على ساق بين نابوليون والدول المتحالفة. ولولا عناية خاصّة من الله لمّا نجا من آفات الحرب لكنّهُ تعالى كان يعدّهُ الى حربٍ أخرى روحيّة ما لبثت ان نشبت بينهُ وبين قوّات الجحيم. فعاد الى وطنهِ وساعد الكاهن الذي عُني بتخريجهِ وتهذيبهِ مدّة ثلاث سنوات فلمّا انتقل هذا الى رحمة ربّهِ ارسل يوحنّا ڤياناي اسقفُهُ الى قرية أرْس بصفة خادم للنفوس فدخلها في ٩ شباط سنة ١٨١٨ ولم يغادرها الى وفاتهِ في ٣ آب من سنة ١٨٥٩

هذه خلاصة ترجمة حياة رجل الله فانها لعمري زهيدة حقيرة في اعين العالم واهلهِ الذين يعتبرون الجاه والفخفخة ولا يحفلون بغير المراتب العليا والمناصب الشريفة والاعمال الظاهرة لكنّ نظر الله يخالف نظر البشر فانهُ يتّخذ لاظهار مجدهِ اضعف الآلات ليبيّن قدرتهُ ويختار الخسيس من العالم ليخزي القويّ لكي لا يفتخر ذو جسد امامهُ. واثباتاً لهذا القول ها نحن ذا نورد شيئاً من الاعمال المبرورة التي قام بها هذا الكاهن القديس مدّة الاربعين السنة التي قضاها في رعاية النفوس في أرْس

*

أرْس بلدة صغيرة من قضاء ترڤو ليست بعيدةً من مدينة ليون في فرنسة. ولمّا قدم اليها خوري أرْس في اوائل سنة ١٨١٨ كانت قريةً حقيرة لا شيْ فيها يستحقّ

الذكر اللهمَّ الَّا قصرًا قديمًا كان هناك فوق ربوة تسكنهُ أُسرة شريفة عُرفت بفضائلها وتقاها . وموقع القرية في بطحاء يجري فيها جدول ماء ينصبُّ في نهر السون وعلى جانبي مجرى الماء اشجار الحور الباسقة تحجب وراءها بيوت القرية . وكان اهلها يزاولون الفلاحة ويرتزقون بالزراعة . لمَّا من جهة الدين فانهم قلَّما كانوا يكترثون لهُ لاسيَّما انَّ كثيرين منهم كانوا نشأوا في ايَّام الثورة بعد طرد الكهنة واقفال الكنائس ونفي الدين من التعليم

فما وصل الاب فياتاي الى مركزهِ حتَّى ادرك حرج مقامهِ وما تطلبهُ منهُ مهنتهُ من الشغل الشاقّ والمتاعب العديدة والتفاني الدائم ليكسب قلوب اهل رعيَّتهِ ويزرع فيها بذور الفضائل ونظر الى نفسهِ فادرك عدم كفايتهِ لهذه الغاية السامية اذ لم يمنحهُ الله شيئًا ممَّا يبهر عيون البشر كالجاه وجلالة الهيبة والوسامة وخلابة اللسان وبلاغة الكلام وكأنَّ الطبيعة ضنَّت بهباتها اليهِ فكنت تراهُ شحت اللون منقوف البدن ساهم الوجه قصير القامة ثقيل الحركات شديد الحفر كالفتاة الحييَّة . ومن ثمَّ لم يرَ الَّا ان يوجّه بنظرهِ الى ابي المواهب فيجعل كل كفايتهِ بالربّ

وكانت اوَّل وسيلة التجأ اليها لنوال غايتهِ الاستجرار بالصلاة فأخذ يحيي ليلهُ بالسهر والادعية الى الله الذي لا يردُّ ابتهالات قديسيهِ وتوسُّلات اصفيائهِ الى ان يضنكهُ التعب فيسقط على الحضيض وينام ساعتين او ثلاث ساعات ليس الَّا . وكان قبل ان يتنفَّس الصباح يُسرع الى الكنيسة فيجثو امام القربان الاقدس ويبقى دون حركة غائصًا في ذكر الله او شاخصًا بعينهِ الى الهيكل كانهُ يرى المسيح في سرّهِ العجيب . فما لبث اياماً في أرس حتى شاع بين اهلها خبر قداستهِ فكانوا يأتون الكنيسة لينظروا اليهِ وقت صلاتهِ فيخرجون قائلين : ليس هذا بانسان بل هو ملاك حيّ

وكانت عبادتهُ تزيد وتنمو اذا باشر بتقدمة الذبيحة الالهيَّة فيضطرم قلبهُ ويذوب حبًّا بخالقهِ اما وجههُ فكان يتحوَّل الى وجه سكَّان الجنان والدموع تنحدر على وجناتهِ حتى انَّ الحضور لم يشكُّوا في انهُ كان يعاين حينئذٍ مناظر سموَّية لم تبصرها عين بشر . وكان لسانهُ يتفوَّه بما يطفح بهِ قلبهُ وربَّما خنقتهُ العبرات اذا وصف محبَّة الله الى مخلوقاتهِ الذين اهَّلهم بمشاركة اسرارهِ العجيبة

واضاف الكاهن القديس الى صلواتهِ المتواترة اعمال التقشُّف والاماتة ليجلب على

رعيَّته سوابغ النعم والبركات الروحيَّة . وكلُّ من عرف الخوري ڤاناي يشهد بانَّ عيشتهُ لم تكن قط شظفةً قشفةً بل كانت كصوم متواصل لا يبالي بما يأكل او يشرب كأنهُ لم يُعطَ جسدًا كبقيَّة الناس . وكان في الغالب يكتفي بما لا يقنع بهِ افقر الفقراء واحوج المساكين اعني كسرة من الخبز القفر اليابس الاسود مع قليل من البطاطا المطبوخة بالماء الحارّ . اما المآكل الاخرى فما كان يذوقها واذا أُرسل اليهِ شيءٌ منها اسرع فتصدَّق بها على المحتاجين والبائسين ساعيًا بنقلها اليهم سرًّا لئلَّا يناله شكرهم . وكأنهُ وجد في اكلهِ المذكور ترفًا وبذخًا فسعى مدَّةً بان يقتات بمرعى المواشي من عشبها الخاصّ التَّفه ومن جذور النبات بيد انَّ خوار قواه وانحراف مزاجهِ احوجاهُ الى ان يعود الى خبزهِ الاسود العادي . وفي بعض الاحيان كان ينقطع عن الاكل تمامًا مدَّة يومين وثلاثة الى ثمانية ايَّام . وكان اذا ونَّبهُ احد على مبالغتهِ في التقشُّف تبسَّم قائلًا : « انَّ الله منحني جبلةً قويَّة (هكذا كان يدعو جسدهُ) لا تحتاج الى علفٍ كثير كالخيل المضمَّرة التي تزيد نشاطًا بضمورها »

وكان لخوري أُرس خادمة تهتمُّ بلوازم دارهِ وكانت تحاول ان تصلح اكلهُ وتعرض عليهِ ضروب المآكل التي تظنُّها شهيَّةً لتلبيهِ فكان القديس يوافقها الى طلبها ببشاشة ولكن اذا انهت الطبيخ استدعى لهُ فقيرًا ساغبًا دون ان يذوقهُ . وألحَّت عليهِ احدى المحسنات ان يدعوها يومًا الى طعامهِ مع بعض النساء اللواتي كنَّ يُساعدنهُ في مشروعاتهِ الصالحة فاجاب اخيرًا الى رغبتهنَّ واعدَّ لهنَّ من خبزهِ وماءهِ ثمَّ قال لهنَّ : « اجلسنَ معي على مائدة الفقراء فناكل معًا خبز المساكين ثمَّ نشرب ماءً معينًا اعدَّهُ لنا الخالق بجودهِ واذا نال الجسد حاجتهُ من الطعام اعطينا الروح قوتهُ فنقرأ سيرة القديسين الذين نبذوا الترف والرفاهية في سبيل الله » . قالت المحسنة : « انني بقيتُ ذلك اليوم طاوية صائمة اذ غصَّ حلقي باوَّل لقمة من ذلك الخبز ولم أعُد ثانيةً اطلب من الاب ڤاناي وليمةً أخرى الَّا اني تحقَّقتُ بانَّ كاهنًا يعيش هذه العيشة يقوى على اصطناع كل المعجزات »

وكان القديس مع هذه الاماتات والاصوام لا يدع راحةً لجسمهِ فتارةً يجلدهُ بالجالد وتارةً يلزمهُ بالاتعاب الشاقَّة وحينًا يحرمهُ حاجتهُ من النوم وطورًا يرقدهُ على الواح الخشب دون فراش ويسند رأسهُ الى حجر ووقتًا يطوِّقهُ بالمناطق الحديديَّة كأنَّ جسدهُ ألدُّ اعدائهِ لا يرضى لهُ بساعة هناء

على انَّ هذه التقشّفات لم تكن سوى دلائل ظاهرة لما طُبع عليهِ رجل الله من التجرُّد عن الدنيا والتواضع الصادق والصبر الجميل على الشدائد . وانَّ منزلهُ كان أحقر المنازل لم يُرَ فيهِ شيءٌ من الاثاث والادوات التي لا تُحرَمها قلّايات افقر الرهبان وكانت الحجرة التي يرقد فيها خاليـةً من كل زينة الّا بعض صور تقويَّة غاية في البساطة وفي وسطهـا منضدة صغيرة من خشب السنديان وكرسي واحد من القشّ مع بعض كتب عتيقة وكانت جدران الحائط مسودَّة يدخل اليها الضوء من نافذتين بلا كلل وفي احدى زواياه مستوقد لم تُرَ فيهِ النار مطلقًا حتى في فصل الشتاء القارس . وهذه الغرفة يزورها اليوم الوف من الزوّار ويصلّون فيها

امّا تواضعهُ فكان عجيبًا فانَّ الاب فياناي كان يعدُّ نفسهُ كأكبر الخطأة ويريد انَّ الغير يعاملونهُ كذلك . ومن ثمَّ كان يفرّ من مديح البشر وثنائهم حتى انهُ اذا لحظ في رسالة بعض المراسلين كلمةً تُشعر باعتبارهم لشخصهِ كان يمزّقهـا دون ان يقرأها او يجيبَ على كاتبها امَّا الذين يضطهدونهُ او يشتمونهُ او يبخسون حقـهُ فانَّهُ كان يشكرهم ويصلّي لاجلهم ويُحسن اليهم . وممَّا يُخبَر عنهُ انَّ اسقفهُ دعاهُ يومًا امام جماعـة بالخوري القديس فحزن لذلك ايَّ حزن حتى انَّ الدموع ترقرقت من عينيهِ فصاح باكيًا : « ويلًا لي اني قد خدعتُ بريائي وتظاهري بالصلاح حتى الاسقف نفسهُ » والامثال على ذلك عديدة لا نستطيع ذكرها لضيق المقام

وكلّ هذه الفضائل السامية وغيرها ايضًا كثيرة قد اثارت عليهِ بغض الجحيم فانَّ الابالسة خزاهم الله استنفدوا الوسع في ردّهِ عن سبيـل البرّ فكانوا يظهرون لهُ على اشكال غريبة كما فعلوا بالقديس انطونيوس ابي الرهبـان وكان اذا صلّى يسمع تارةً زئير الأسـد وتارةً فحيح الحيّات وكان اذا رقد يسحبونهُ من رجلهِ او يضربونهُ ويلقونهُ على الحضيض وربَّما كانوا يزعزعون غرفتهُ كأنَّهم يريدون نقضها فوقهُ . وفي احد الايّام اذ كان نائمًا على فراش من التبن حاول احد الابالسة ان يحرقهُ في فراشهِ لكنَّهُ نجا بعون الله والفراش يُرى الى يومنـا مع آثار حريقه . وكان القديس في اوَّل الامر يقشعرّ لهذه المناظر المخيفة ولمَّا تحقَّق بانَّ فاعلها الخنّاس كان يكتفي باشارة الصليب فيردُّهُ عنهُ مخزيًّا . وقد دامت هذه الحوادث سنين عديدة حتى انَّ اهل أرس عاينوها غير مرَّة . وكان البعض يزعمون بانَّها من الخرافات او من الاوهام فيختفون في منزل

القديس ليروا ما فيها من الصحة فلا يلبثون ان يختبروا صحّتها فيولون هاربين. وكانت هذه الاحداث الغريبـة تجري خصوصاً في أيام رجوع بعض الخطأة الى الله على يد خوري أرس كأنَّ الجحيم اراد بذلك ان ينتقم منهُ ويثأر لفقدهِ أسراه

*

هذه لمحة وجيزة عن بعض فضائل الطوباوي فياناي فلننظرنَّ الآن كيف جازى الله بإرادته بما اجراه على يديهِ من الخير والكرامات. ما بلغ خوري أرس مقام رسالتهِ حتَّى انتشر عبير قداستهِ بين مرؤوسيهِ فكان لهـذا النبأ احسن وقع في قلوبهم اهّلهم لقبول تعليمهِ ورغّبهم في استماع ارشاداتهِ كل احدٍ وعيد. فاخذ في فلاحة كرم ربهِ بنشاط لا يعرف الملـل

ولمَّا علم انَّ جهل الديانة وفروضها من اكبر آفات العصر خصَّ نفسهُ بشرح التعليم المسيحيّ وايضاح العقائد الدينيَّة على طريقة سهلة قريبة المنال بيد انهُ كان يكثر من الامثال والتشابيه والاقاصيص الروحيَّة فكان القوم يتواردون الى استماعهِ برغبة عظيمة حتى ان الكنيسة كانت تغصُّ بالحضور من صغار وشبَّان وكهول كنت تراهم ينصتون الى كلامه ساعات كأن على رؤوسهم الطير. وقد كتب بعض الكهنة نبذًا من عظاتهِ وارشاداتهِ فنشرها بالطبع ومن يطَّلع عليها يأخذهُ العجب من معانيها السامية مع سذاجة الفاظها ولا يشكُّ في أنَّ الله نفسهُ كان يلهمهُ ذلك بانوارهِ العلويَّة. وفي الحقيقة انَّ القديس كان اذا رقي منبر الخطابة تحوَّل الى رجلٍ آخر فيضيءُ وجههُ وتبرق عيناه ويشتدُّ صوتهُ الضعيف فيخرج كلامهُ من القلب كسهام ناريَّة تنفذ في قلب سامعهِ فيخال لهُ انهُ يسمع صوت احد الانبياء القدماء الذين كان الله يرسلهم الى شعبهِ ليردّهم الى جادَّة الفضيلة. وكان مجرَّد نظر الحضور اليهِ يؤثر فيهم لعلمهم بقداسة سيرتهِ وسموّ فضلهِ

ولمَّا رأى خوري أرس انَّ في اهل رعيَّتـهِ عادات باطلة شاعت بينهم واضرَّت بدينهم شمَّر عن ساعد الجدّ لاقتلاع هذا الزوان ولاستئصال شأفتهِ فمن ذلك انـهُ اعاد ليوم الربّ رونقهُ وابطل فيهِ الاعمال الجسديَّة ليكون يوم راحة للجسم وللنفس معًا فما كنت ترى احدًا من العملة في ذلك النهـار يُقدم على شغل ولو وُعد بغنى قارون. ومنها ايضًا انـهُ كفَّ الشبَّان والفتيات عن المراقص التي كانت تجري في بعض المواسم فتفسد بسببها الآداب وينتشر الفساد. وكذلك سعى باقفال الحانات التي كان يجتمع

فيا البعض لمعاقرة الخمرة والمقامرات فلم يحبط مسعاه. فاضحت رعيَّة أرس بعد زمن قليل قدوةً لبقيَّة الرعايا بتُقى اهلها وحسن سلوكهم وامتناعهم عن الخلاعات والمسبَّات والشتائم. وجعل يهاجر اليها بعض الغرباء رغبةً في عيشة سكانها الصالحة

وبعد اقتلاع هذه الاعشاب الباطلة طفق الاب فياناي يبذر في القلوب بذر الفضائل المسيحية ولم يجد لذلك وسيلةً انجع من تنشيط مرؤوسيه على مثابرة الاسرار المقدَّسة لينالوا نعمة سرَّي التوبة والقربان فكان القديس يقضي الساعات الطويلة في كرسيّ التوبة ليرحض ادران القلوب ويصالح الخطأة مع الههم. وكان اكبر فرحه اذ يراهم صفوفاً عديدة جالسين على مائدة الربّ يقتاتون بخبز الملائكة

ومَّا استعان بهِ على نشر الفضيلة بين رعاياه انشاؤهُ لعدَّة شركات تقويّة واخويات نظم في سلكها الرجال والشبَّان والنساء والفتية والفتيات فكانت لكل فئة جمعيَّتها تلتئم في اوقات محدَّدة وتقيم لها الاعياد الخاصَّة وتسعى باعمال الغيرة والتُّقى فازهرت هذه الجمعيَّات عمَّا قليل واضحت اقوى مساعد للقديس على تحقيق امانيهِ الصالحة من تلافي الشرور وانماء كل عمل مبرور حتى ان الذي كان يقدم الى ارس كان يرى نفسهُ في وسط جماعة من الاخوان او في دير من الرهبان فيطوّب الشعب الذي نال السعادة الحقيقية حتى في العالم الحاضر

ومن آثار القديس في ذلك العهد انهُ وجد كنيسةً صغيرةً لم تعد تفي بحاجات المؤمنين. فعوَّل على توسيعها وترميمها وتزيينها بمالهِ الخاصّ الذي لم يستفد منهُ لذاتهِ بل صرفهُ كلَّهُ في عمل الخير. ولم يزل يكدّ ويجد حتى جعلها طبق مرامهِ واضاف اليها عدَّة معابد احدها على اسم البتول البريئة من دنس الخطيئة الاصليَّة والآخر على اسم سميّهِ القديس يوحنا المعمدان. ومن هذه المعابد مشهد القديسة فيلومينة الشهيدة التي كانت وُجدت ذخائرها حديثاً في دياميس رومية فاتَّخذها الخوري أرس كشفيعته الخاصَّة واجتهد ايَّ اجتهاد في اكرامها حتى انهُ لم يطلب نعمةً بشفاعتها الَّا نالها وكان ينسب اليها كل المعجزات والكرامات التي تجري على يدهِ

*

على انَّ هذه الاعمال لم تكفِ لغيرتهِ فانهُ كان على شبه سيّدهِ يتمنَّى شفاء كل عاهةٍ ووجع ويتوق الى رجوع كل الخطأة الى التوبة. فمن مشروعاتهِ الخيريَّة انهُ انشأ

ميتم كبيرًا للفتيات الفقيرات ليخلصهنَّ من اخطار العالم ويربيهنَّ تربية صالحة . وهذا العمل كان يقتضي مبالغ عظيمة ونفقات طائلة لكنَّهُ جعل اتكالهُ عليهِ تعالى فلم يخب الله آمالهُ وبارك هذا المشروع وألهم المحسنين التصدُّق عليهِ فصار ذلك الميتم مأوى لعدد لا يُحصى من البنات التقيَّات اللواتي مارسنَ أسمى الفضائل المسيحيَّة . وقد جرى فيهِ من المعجزات الباهرة ما تتناقلهُ الالسنة حتَّى اليوم كتوفير القمح في الاهراء عند الجاعة وكارسال الصدقات غير المنتظرة في ساعة الحاجة وغير ذلك مما شهد عليهِ الشهود الاعيان

ومن اعمالهِ المذكورة سعيهُ بتربية الاحداث فانهُ كان لا يقتصد شيئاً من وقتهِ واتعابهِ ليُحسن تثقيفهم منذ نعومة اظفارهم . وكان هو الساعي بجلب اخوة العائلة المقدَّسة الى أرس ليقوموا فيها باعباء التعليم وانشاء المدارس اما هو فكان يرشد الاولاد ويسمع اعترافهم ويهتمّ بالمعلّمين انفسهم

ومن اعمالهِ ايضاً انهُ كان يساعد كهنة القرى المجاورة كلَّ ما احتاجوا اليهِ في ايام الرياضات الروحيَّة وفي اليوبيلات وبعض الاعياد فكان رجل الله اذا دخل كرسي التوبة تقاطر اليهِ عدد التائبين ليقرُّوا لديهِ بذنوبهم حتى انَّهُ يقضي في هذا العمل الى خمس عشرة ساعة وأزيد دون راحة ولا نوم وكان وجوه الشعب وعمَّال الحكومة واصحاب الوظائف لا يرضون بغيرهِ مرشداً روحياً يخرجون من عندهِ ودموع التوبة تنهمل من مآقيهم

ومن مبرَّاتهِ العظيمة انهُ انشأ سنة ١٨٥٣ جماعةً من الكهنة العاملين جعل غايتهم الانذار واقامة الرياضات الروحيَّة في بعض انحاء فرنسة وقراها بحيث لا يمرُّ على قرية عشر سنوات دون ان يستفيد اهلها من رسالةٍ عموميَّة على يد هؤلاء المرسلين . فجاء هذا المشروع بثمار خلاصيَّة لا يفي بها احصاء وكان اولئك المرسلون يساعدون خوري أرس في كل اعمالهِ الخيريَّة

*

وكان رجل الله على قدر ما يتقدَّم بالعمر يزيد سمعةً وشهرة ويتضوَّع ارج اعمالهِ وفضائلهِ ليس فقط في الامكنة المجاورة وبين اهل القرى بل بلغ ايضاً مدن فرنسة الكبيرة وجهاتها القاصية حتى اتينون ومرسيلية وباريس . فاخذ الزوَّار يقصدونهُ افراداً يريد البعض مجرَّد النظر اليهِ لتحقيق ما يُخبَر عنهُ والبعض ثقةً ببراءتهِ كانوا يطلبونهُ ليستشيروهُ في امورهم ويعرضوا عليهِ مشكلاتهم وكان غيرهم يأتونهُ ليستمدُّوا منهُ

الشفاء في امراضهم والدواء لبلاياهم وكان اكثرهم يريدون ان يطهروا قلوبهم بالاعتراف عنده . وكلهم مجمعون على أنهم وجدوا لديهِ فوق ما كانوا يؤمّلون منهُ

وكان هؤلاء الزوّار اذا رجعوا الى مواطنهم اطلقوا اللسان في الثناء على رجل الله فيحملون غيرهم الى اقتفاء آثارهم بحيث صار القوم يزيدون يوماً بعد يوم واصبحت أرس محجاً لألوف من الزوّار حتى بلغ عدد القادمين الى زيارة الكاهن الفاضل في كل سنة من ١٢٠,٠٠٠ الى ١٥٠,٠٠٠ زائر كانوا يردون عليهِ ليس فقط من كل انحاء فرنسة بل من بلجكة ايضاً ومن انكلترة والمانية وسويسرة حتى اقتضى الامر أن تُبنى في ارس فنادق ومطاعم للزوّار لعجز الاهلين عن ايوائهم

وكان القديس يتقبّلهم جميعاً باللطف والانس ويجيب على اسئلتهم ويعزّيهم في نكباتهم وربّما كشف لهم عن مكنونات صدورهم وأعلمهم بالاسرار الخفيّة وبرأ عاهاتهم باشارة الصليب او بواسطة ذخيرة القديسة فيلومينة الشهيدة . امّا الذين كانوا يطلبون ان يقرّوا اليهِ بخطاياهم فكان يسمعهم بطول الاناة والصبر ويرشدهم الى التوبة الصادقة وكان في السنين الاخيرة من حياتهِ يقضي في كرسي الاعتراف الى ثماني عشرة ساعة دون انقطاع فاذا خرج يكاد يُغمى عليهِ من كثرة التعب والعياء . وكان مع ذلك لا يردّ طالباً ولا يَملّ ثقيلاً ولا يزجر متعنّتاً . فكان الكلّ يدعونهُ باسم القديس ويلتمسون منهُ ذكرًا ولو طفيفاً يتبركون بهِ . ومنهم من كان يعدّ نفسهُ سعيدًا اذا مسّ طرف ثوبهِ او استافت اليهِ احدى نظراتهِ

وكان ممّن اتوا القديس ايضاً بعض المتزندقين الملحدين وغايتهم ان يرقبوا حركاتهِ ويلتقطوا من فيهِ كلمةً يتّخذونها موضوعاً للهزء والسخريّة لكنّهم ما كانوا يلبثون ان يبوءوا بإثمهم ويقرّوا جهارًا بفضل خوري أرس ومنهم من عاد الى بيتهِ منيباً تائباً وشاكرًا لله على وجودهِ نعمة الخلاص حيث لم يطلبها

وكان الذين لا يمكنهم ان يوافوا أرس يكتبون الى القديس من كل البلاد امّا لاستمداد صلواتهِ او لطلب مشوراتهِ او لغير ذلك وكان البريد يأتيهِ كلّ صباح بهذه الرسائل من كل اقطار المعمور ومن كل طبقات الكتّاب ولو جُمعت هذه الرسالات لما قلّت عن مئات الالوف . وكان رجل الله يجيب على ما يراهُ مستحقاً للجواب ويمزّق كلّ ما يُشعر باعتبار الكاتبين لشخصهِ او يتضمّن سرّاً ما

اما المعجزات التي جرت في قرية أرس من شفاء الزَّمنى وتمشية العرج وقيام المقعدين وفتح عيون العميان وتعريف الامور الغائبة وغير ذلك من العجائب فاكثر من أن تُحصى وأغلبها قد شهد على صحّتها اطبّاء نطاسيّون ورجال موثوق بشهادتهم وهذه الكرامات لم تكفَّ مع حياة القديس بل لا تزال تجري منذ وفاته التي وقعت بعد مرض قصير ألزمهُ الفراش اياماً فانتقل الى فرح ربّهِ بكلّ هدوّ وسلام مسلّماً روحهُ لخالقهِ بحضور جمّ غفير من اهل رعيّتهِ وغيرها يتقدّمهم اسقف الابرشيّة الذي أسرع الى أرس ليحضر كما قال « وفاة احد اولياء الله » وهو الذي ابّنهُ بعد وفاتهِ

وكانت حفلة دفنهِ كانتصار باهر وعيد عظيم مشى في جنازتهِ جموع من نخبة الاكليروس والرهبان والعوام وكان اكثر الحضور لا يفكّرون في الصلاة لراحة نفسهِ بل كانوا منذ ذلك يطلبون شفاعتهُ عند الله فاثاب الربّ ايمان كثيرين فابرأهم لكرامتهِ . وهذه ستّ واربعون سنة مرّت على انتقالهِ الى دار النعيم وذكرهُ لم يزل حيّاً كأنهُ في موتهِ ينطق ويعلّم ويظهر قدرتهُ عند ربّهِ بما اجراهُ من الاعاجيب . ولذلك قد لبّى الحبر الاعظم بيوس العاشر دعوة الاساقفة الذين طلبوا تثبيتهُ واعلن في هذه السنة صحّة معجزاتهِ وامر بدرج اسمهِ في سجلّ الطوباويين وسمح بان يُقدَّم لهُ الاكرام اللائق باصفيائهِ تعالى . نفعنا الله بشفاعتهِ والهم كهنة بلادنا لاسيّما الرعاة الروحيين اقتصاص آثارهِ والتحلّي بفضائلهِ لمجدهِ عزّ وجلّ وخير النفوس

أعمال مجمع عين تراز

عني بنشرها حضرة الاب كيرلس شارون الروبي الملكي الكاثوليكي (تتمَّة)

ثم في الجلسة الثالثة التي كانت في هذا اليوم الخامس من كانون الاول عينهِ قدَّم السيد كير باسيليوس مطران صيدا المحترم لغبطته الخطاب الآتي ايرادهُ قائلاً:

قدس السيد الكلّي الطوبى

غب لثم اناملكم المقدَّسة نعرض لمجمعكم الموقّر عن حال ما هو سالك مخالفًا لعوائد الابرشيات الاخر في مدينة صيدا وفي بندر دير القمر نظرًا الى حقوق العوائد الكنائسيَّة المختصَّة بي مع رعيتي المذكورة اي انهُ خارجًا من المشور الاعتياديَّة لا يعطى